صحيفة المبادرة المسلمة

العدد : ٢٢٠ الموافق في صفر ١٤٢١ هجري ٦/٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : الحرية	بقلم : الأخت فاتن

كلمات عديدة أصبحنا اليوم نتفوه بها ، بل صارت ملتصقة بنا وصرنا نؤكد على ترسيخها في أذهان كل من هبَّ ودبَّ على هذه البسيطة ؛ من جماد وحيوان أو إنسان ، من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب . ومن بين هذه الكلمات « الحرية » هذه العبارة وما تحملها من معان عظيمة تداولتها كل الألسنة البشرية ، بغض النظر عما تمارسه بقية الكائنات الحيوانية والجمادية . لذا ما سأقوله ليس بجديد ولكنَّ تطرقنا إلى هذا الموضوع مرات عديدة دليل على وجود خلل ، أو بالأحرى نقول : تسرب بعض الشوائب التي تنم عن قصور في الفهم أو التطبيق . أيمكن إذاً أن نفهم أن الحرية تعكس الجبلّة البشرية أم هي مبتدعة ومخترقة للسنن الكونية ؟

من خلال هذا السؤال يمكننا مسايرة الرأي الثاني القائل بالابتداع ، وذلك لما يتجلى لنا في الواقع المعاش من اختلافات في الرأي حول مفهوم هذه الكلمة وحول ما يقترف من قتل وجرائم باسم الحرية . ولكن إذا غصنا جيداً في هذه الكلمة وفككنا حروفها الأبجدية ، لاكتشفنا رغم اختلافها في شكل الرسم أنها تتفق في مفهومها المعنوي على جوهر الكلمة . هذه الكلمة التي تبدو صغيرة في شكلها (أربعة أحرف) لكنها كبيرة في معناها . فإذا بحثنا في كل حرف من حروف كلمة « حرية » لتبين لنا أنها تتضمن معناً سلبياً وآخر إيجابياً . ولكن المتأمل يكتشف أن الاشتقاقات الإيجابية أكثر ، وذلك لمسايرتها السنن الكونية والطبيعة البشرية . فإذا أخذنا الحرف الأول من هذه الكلمة وهو « الحاء » فإن كان يرمز إلى الحمق فإنه يقابله معنى إيجابي يدل على الحق والحلم والحنان . أما « الراء » وإن كان سلباً يعني الرجعية فإننا نجد له أكثر من معنى إيجابي يشير إلى الرقابة والرقى والرأي . أما إذا رجعنا إلى الحرف الثالث وهو « الياء » فهذا الحرف يمكن إرجاعه إلى معنى اليأس أما في الاتجاه المعاكس فيمكن رده إلى صفات عديدة كاليقين واليمن واليسر . أما آخر حرف من هذه الكلمة وهو « التاء » فهو يعكس صفة التخلف كما أنه يُرجع إلى صفة التصور والتأمل والتكاتف والتضامن ... الخ .

وهكذا ومن خلال هذه الإشتقاقات إذا أردنا جمع الصفات السلبية فيمكننا حصرها في معنى التخلف واليأس ، وهذه المعاني السلبية ترفض كلها رفضاً قطعياً لاحتوائها على أبشع الصفات المدمرة ، ليس بالإنسان فقط ، بل كذلك لبقية الكائنات الأخرى . فإذا أخذنا على سبيل المثال المملكة الحيوانية فنرى أن الأسد يزعم السيادة والقوة على الكل في حين تحاول بقية الحيوانات من جانبها أن تنزع عنها رداء هذا

التخلف والحمق وتنافس الأسد في هذه القيادة ، وترى أن ذلك لا يمكن تحققه إلا بالتقيد بحق وجودها والقضاء على اليأس . أما في عالم الجمادات ، فإن هذه الأخيرة لكي تساير الواقع عليها ألا تتخلف عن آخر المستجدات في عالم الرقى والتطور . فمثلاً لا يمكن أن يؤدي الفحم وظيفة الطبخ من ناحية النظافة والسرعة .. و ... و... كما يحققه موقد الطبخ اليوم . ورغم الاستغناء عنه في هذا الجانب فإن اليأس لم يمتلكه ، بل فضل ألا يتخلف عن قيمته الأساسية كثروة من ثروات المواد الطبيعية . إذاً فهذه الصفات السلبية لا يمكن أن يكون لها دور مرغوب فيه ، دور نهضوي ، دور يساهم في السير بالحياة قدماً .

فما بالك بالإنسان هذا الكائن المسخر له والمُطالب بقيادة الكون وما حوله . أيمكن أن يكون المأموم قبل الإمام ؟! أيُنجب الابن قبل ولادة الأب ؟ من المؤكد أنه غير معقول . إذاً لم يبق أمام الإنسان إلا أن يعي ويجمع شتات معاني كل حرف من هذه الحروف ، من حق وحلم ورأي ورقابة ويقين وتضامن وتأمل ، ويستخلص منها أسمى معاني الحياة ، فتصبح عبارة « الحرية » تتضمن في حروفها ذاتها معنى « حق التقيد بالرأي بيسر وحلم » وبذلك نحقق المفهوم الصحيح للحرية . فالحرية إذاً ليس انفلاتاً من الرقابة والتجرد من القيود بقدر ما تفرض علينا التصور اليقيني في حق التقيد بالرأي . وحينما نلتزم بهذا نكون قد بدأنا نستجيب لفطرتنا السوية ونبتعد شيئاً فشيئاً عن الزيغ والانحراف .